سوريا
الثقافة_مدحت عكاش
العدد رقم 6
1 يونيو 1962

الشعر العراقي الحديث

منذ بداية القرن العشرين

بقلم : بدر شاكر السياب

لعل العراق عرف من الشعراء، في ما يسمى بـ « الفترة المظلمة » أكثر مما عرف اي قطر عربي آخر • فبالاضافة الى عبد الباقي العمري وعبد الغفار الاخرس والسيد حيدر الحلي والسيد محمد سعيد الحبوبي، هناك عدد كبير من الشعراء الآخرين الذين كانوا أقل شهرة من هؤلاء • وحين أهل ما يسمى بـ « عصر النهضة » كان للعراق شعراؤه ايضا • وكان هؤلاء الشعراء شبه امتداد لشعراء « الفترة المظلمة » • فلا سبيل الى المقارنة بين خليل مطران أو أحمد شوقي أو حتى حافظ ابراهيم في مصر وبين معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي وهما « أكبر شاعرين » عرفهما العراق في عصر النهضة •

واذا كان معروف الرصافي يستحق أن يسمى – بكثير من التحرز – شاعرا، فلا أدري ماذا يملك الزهاوي مما يستحق معه أن يسمى شاعرا • فحين نعتبر « وظيفة » الشاعر وظيفة سياسية أو اجتماعية أو فكرية نجد أن الرصافي قد أسهم بشيء من كل هذا، مما حدا بدعاة الالتزام الى اعتباره « شاعرا كبيرا » • أما الزهاوي، « شاعر العراق وفيلسوف شعرائه » كما كانت تسميه مجلة « الرسالة » المصرية، فان « فلسفته » هي أنه كان يطلع على تتف من نظرية « دوران » – كما كان يشهر بها الكاتب المصري سلامة موسى – ثم « ينظمها » أبياتا ركيكة تفتقر حتى الى الرنين الموسيقي •

وبينما كان الرصافي والزهاوي حديث المجالس والندوات الادبية – وحتى السياسية – في بغداد، كان في مدينة (النجف) – المدينة التي كل أهلها « شعراء » – اي نظامون – كما يقول المثل العراقي – شعراء لم يكتب لهم ما كتب للرصافي والزهاوي من شهرة، وان كان بعضهم يفوق هذين الشاعرين، او يفوق الزهاوي على الاقل، بمراحل كثيرة • فما من منصف الا ويفضل الشيخ محمد رضا الشبيبي ومحمد مهدي الجواهري – حتى في ديوانه الاول – على « شاعري العراق الكبيرين » الرصافي والزهاوي • ومات الزهاوي فلم يؤثر موته في شيء على « الميزان الشعري » في العراق، فقد ظل الرصافي يعتبر « شاعر العراق الفرد »، وظل سواه من الشعراء دونه شهرة • ومع أن محمد مهدي الجواهري كان قد كتب قصيدته « ستالينغراد » – التي جعلت الشيوعيين ينصبونه « شاعرا أكبر » على البلاد العربية كلها – فقد حدثت مساجلة شعرية بينه وبين معروف الرصافي في آخر ايامه، أعلن فيها الجواهري في استخذاء ما بعده استخذاء، أنه يقاسي مثل ما يقاسيه الرصافي من حرمان ومن انكار لمواهبه • واستجدى فيها الرصافي ان يعتبره خليفة له • ومات الرصافي •• فوقف على قبره – بعد أن ووري التراب – شاعر ارتجل – وهو يرتجف – قصيدة رثاه بها، وندد فيها بالحاكمين الذين ظلموا الرصافي وظلموا الشعب كله • كان هذا الشاعر محمد صالح بحر العلوم، « شاعر الشعب » كما سمته جريدة الشعب اليسارية في فترة الحرب العالمية الثانية • ومنذ ذلك اليوم بدأت منافسة جديدة بين شاعرين جديدين – الجواهري وبحر العلوم – لتحل محل المنافسة التي كانت قائمة بين الرصافي والزهاوي • دخل هذان الشاعران في تلك المنافسة، وسلاح الاول موهبته الشعرية وجريدته التي راحت تخلع عليه الالقاب وتنشر قصائده في موضع المقال الافتتاحي، وسلاح الثاني اخلاصه الصادق للشيوعية وتفانيه في بث أفكارها •

وليس معنى هذا ان الجواهري لم يكن يبشر بالافكار الشيوعية في شعره • وما لبث ان جمع الشاعرين حزب سياسي واحد هو حزب « الاتحاد الوطني » • لكن رضاء الحزب الشيوعي العراقي عن هذا الشاعر أو ذاك كان هو الذي يرجح كفة هذا الشاعر او ذاك • ولم يكتف الحزب الشيوعي العراقي بالوقوف موقف المراقب في هذا الصراع الشعري • فحين برز الى العمل العلني تحت واجهة من « عصبة مكافحة الصهيونية » ـ التي أجازتها الحكومة ـ و « حزب التحرر الوطني » الذي ظل يواصل نشاطه فترة طويلة وان لم تجزه الحكومة ، جند شعراءه ، الذين كانوا أعضاء فيه أو أصدقاء له ، وزج بهم في الميدان • فصفقت جموع «المناضلين» و«الكادحين» لعلي جليل الوردي، وجاسم الجبوري وبدر شاكر السياب•

لكن عام ١٩٤٧ سجل تحولا في اتجاه الشعر العراقي وأساليبه • ففي أواسط ذلك العام أصدرت الشاعرة العراقية نازك الملائكة ديوانها الاول (عاشقة الليل) ، وفي أواخره أصدر بدر شاكر السياب ديوانه الاول « أزهار ذابلة » • وبصدور هذين الديوانين بدأت حركة الشعر الجديد في العراق ••• فجاز ، لمن يريد التحدث عن الشعر العراقي المعاصر ، بعد ذلك أن يقصر حديثه على الشعراء الشباب وحدهم الذين فتحوا للشعر العراقي آفاقا جديدة واستطاع بعضهم أن يسمع صوته لجهات كثيرة خارج العراق •

غير أن الاحداث السياسية لم تكن لتترك الشعر يأخذ مجراه • فقد شهد العراق في أوائل عام ١٩٥٨ ما يسمى ب « الوثبة » ـ وهي الحركة الشعبية التي أطاحت بحكومة صالح جبر وتسببت في الغاء معاهدة (بورتسماوث) • وشهد العراق فترة من الحرية لم يشهد شبيها لها منذ سقوط بغداد على يد هولاكو حتى ١٤ تموز ١٩٥٨ • مئات من المظاهرات التي كانت تلقى فيها القصائد وعشرات من الاجتماعات التي يعتلي المنابر فيها عشرات من الشعراء • وصار أكثر الناس لا يلقون بالا لغير الشعر « الملتزم » ، الذي لم يكن في أغلب الحالات ـ سوى مقالات سياسية أخضعت للوزن والقافية• وانطوى كثير من الشعراء الحقيقيين على أنفسهم ، يكتبون الشعر ثم يقرأونه على أصدقائهم في مجالسهم الخاصة • ثم نشبت الحرب الفلسطينية ، وأعلنت الاحكام العرفية في العراق • فخفت الغليان السياسي في العراقي ، وخفتت معه أصوات الشعراء الملتزمين ، الا الجواهري الذي لم يكف عن كتابة الشعر السياسي ، والا الشعراء القوميين ـ القوميين العرب طبعا ـ الذين راحوا يكتبون قصائد يحثون الناس فيها على الجهاد ومحاربة الاعداء في فلسطين •

في تلك الفترة ولد « الشعر الحر » ـ وهو الشعر الذي لا يتقيد فيه الشاعر بأن يكون عدد التفعيلات متساويا في كل أبيات القصيدة ـ وان كان « جنينه » الحق قد رأى الحياة عام ١٩٤٦ حين اكتشف بدر شاكر السياب هذه الامكانية في قصيدته (هل كان حبا ؟) المنشورة في ديوانه (أزهار ذابلة) الصادر عام ١٩٤٧ ، وحين نشرت الاستاذة نازك الملائكة قصيدة لها كتبتها على هذه الطريقة في مجلة (العروبة) التي كان يصدرها الاستاذ محمد علي الحوماني عام ١٩٤٧ • وأصدرت نازك الملائكة ديوانها « شظايا ورماد » عام ١٩٤٨ وأصدر بدر شاكر السياب ديوانه « أساطير » عام ١٩٥٠ • فبدأت حركة الشعر الحر منذ ذلك الحين •

ولم تتح ، في تلك الاثناء ، للشيوعيين أية فرصة لعقد اجتماع « جماهيري » ـ كما يسمونه ـ او اقامة حفلة ، مما ساعد على اضعاف حركة الشعر المنبري • وتلقف الشعراء الشيوعيون الشباب حركة « الشعر الحر » فتبنوها • ونصبوا لها أميرا منهم هو عبد الوهاب البياتي الذي زعموا أنه هو « رائد الشعر العراقي الحديث » • وراحوا يكتبون المقالات المبنية على (الدايلكتك) الذي « لا يمكن أن يخطىء أبدا !! » فحركة الشعر الحر ـ كما يزعمون بدأت بتغيرات « كيفية » أدت بدورها الى تغيرات « كمية » •• أي في عدد التفاعيل • هكذا! بكل بساطة تصبح حركة الشعر الحر حركة ماركسية • متجاهلين أن التغيرات « الكمية » ـ اي التغير

في عدد التفعيلات في كل بيت - هي التي سبقت التغيرات «الكيفية» ، اي المواضيع التي أصبح الشاعر يكتب فيها وأسلوبه في الكتابة • وعزز هذه الدعوى الشيوعية جهل بعض الفئات الرجعية التي راحت تزعم ان حركة «الشعر الحر» انما تهدف الى القضاء على الشعر العربي وعلى الاساليب العربية وان الشعوبيين - أو الشيوعيين - هم أول من جاء بهذه البدعة •

صحيح ان بدر شاكر السياب كان عضوا في الحزب الشيوعي العراقي حين بدأ كتابة الشعر الحر • لكنه أوقف «شعره الحر» على عواطفه الذاتية - التي كانت متشائمة ، راغبة في الموت والفناء - بينما ظل يكتب قصائده «النضالية» على الطريقة التقليدية ليتمكن من القائها في المظاهرات او من على المنابر - او ليلقيها أي «مناضل» سواه - متى واتته الفرصة • هذا من ناحية الشكل • أما من ناحية المضمون فقد كان للشاعر الانكليزي الكبير ت•س• ايليوت (الشاعر «الرجعي» كما يسميه الشيوعيون) ، أكبر الاثر • فعن طريق تقليده - تقليدا سطحيا بالطبع - شاعت طريقة التكرار - اي تكرار بيت معين - وطريقة التضمين بحيث ينعكس المعنى الاصلي الذي قصد اليه الشاعر المضمن قوله ، وطريقة الالتجاء الى الاسطورة ، وخاصة اسطورة ادونيس - تموز - التي شاع استعمالها في الشعر العربي الحديث رمزا للبعث بعد الموت ، كما شاعت طريقة استعمال الديالوج ، واستعمال لغة الحوار اليومي • ومسخ الشعراء الشيوعيون طريقة ايليوت • فشاع التكرار على نحو ما يكرر المتظاهرون شعارا معينا أثناء سيرهم ، وشاعت طريقة تضمين الشعارات السياسية ، واستعمال اللغة العامية دون ضرورة الى استعمالها • واذا كان عبد الوهاب البياتي بداية هذا الانحراف الشيوعي في الشعر ، فان «الشهرة» التي نالها والثناء الذي لقيه شجع بقية الشعراء الشيوعيين على التمادي في هذه المساوىء التي اعتبرت حسنات • قال أحدهم في قصيدة :

جمعة الاتراك أحد
كوم باوع يا محمد !!

ففي البيت الاول ضعف (الحاء) في كلمة (أحد) • اما البيت الثاني فهو باللغة العراقية الدارجة ومعناه (قم فانظر يا محمد) • وقال شاعر شيوعي آخر :

معي كان في ٥ / ٦
وقد كنت أشرب صوته

ان البيت الاول لا يستقيم الوزن فيه الا اذا لفظنا التاريخ كما يلفظه العامة ، فقلنا (معي كان في خمسة سته) اي بترك التاءين في خمسة وستة دون تنقيط ولا تحريك •

ان في العراق اليوم جمعيتين أدبيتين هما (اتحاد الادباء) ويسيطر عليه الشيوعيون و (جمعية الكتاب والمؤلفين العراقيين) ويسيطر عليها الرجعيون • على ان في كلتا الجمعيتين عناصر طيبة تتمتع بشبه استقلال فكري •

وتلاحظ اليوم في الشعر العراقي ردة على الالتزام • لقد عاش أغلب الشعراء العراقيين فترة طويلة من حياتهم - هي فترة الشباب - وهم لا يكتبون الا عن الفقر والجوع والبطالة والظلم والطغيان ، أن يلتفتوا الى أنفسهم فيعبروا عما تجيش به من عواطف تجاه الطبيعة والموت والله • وان المتتبع لحركة الشعر العراقي ليلاحظ اليوم - حتى عند بعض الشعراء المعروف أنهم «شيوعيون» - نبرة دينية تتراوح قوة وضعفا حسب موقف الشاعر الايديولوجي والسياسي • كما يلاحظ فورة في العواطف نحو الجنس الاخر ونحو الطبيعة والجمال بصورة عامة • ولعله تعويض عن فترة شبابهم الضائعة عبثا في الالتزام • ونستطيع أن نعدد بضعة اسماء من اسماء الشعراء العراقيين تقف شامخة على سواها • فهنالك الاساتذة : نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وعبد الجبار داود البصري في جمعية الكتاب والمؤلفين العراقيين ، وهناك سعدي يوسف ورشدي العامل وحساني علي الكردي في اتحاد الادباء •

ولن يقدر للشعر العراقي الحديث الازدهار الا اذا تخلى نهائيا عن الالتزام ، واتخذ من شعراء الغرب الكبار أمثال ت•س• ايليوت وسان جون بيرس وايدث ستويل وستيفن سبندر وسكليانوس - لا من ناظم حكمت وبابلو نيرودا وقسطنطين سيمونوف - قدوة له •